

ما أشبه الليلة بالبارحة

من هو العالم منا فنكرمه

الاستاذ الكبير جبرضومط استاذ اللغة العربية والآداب في جامعة بيروت
الامريكية شهرة كبيرة في العالم العربي . فليس لنا اذن أن نقدمه للقراء لأن
آثاره العظيمة تغنيه عن كلمات تكتبها فيه المصور . وقد خص المصور يبحث
طلي هو عبارة عن خطبة . مستفيضة ألقاها سنة ١٨٨٧ في جمعة من شباب ذلك
المصر وشيوخه بحث فيها فكرة اجتماعية كبرى لا تزال المشكلات المنبثة
حفاؤها قائمة في نواحي الشرق الى الآن ، فوضعنا لها هذا العنوان الذي نعتذر
عنه مقدما لاستاذنا الكبير . وهذه الخطابة لم تشر قبل الآن .

* * *

حضرة رئيسي المحترم . وحضرات اخواني الاعزاء . ويا حضرات السادة
والسيدات .

ما انا خطيب ولا ابن خطيب ، انما انا مظلوم ، ظلمني اخواني ولا اشكوهم ،
ومكلف كلني رئيسي وله الشكر ان اقف امامكم في هذه الحفلة الموقرة . موقف
الخطيب .

على اني لا اعتذر ايها الاخوان ولا اطلب اليكم ايها السادة الحضور ان
تغضوا الطرف عما تسمعون مني مما لا يقع لديكم موقع الاستحسان فما هذا الا
ملق يتوسل به الخطباء ، وكبر في اطوار من زاووق التواضع والانكسار ، فضلا
عن ان كلماتي مرة وقد جرحت من نفسي ، اولا فلا عجب اذن ان تجرح من
أنفسكم ثانيا

من عادة الخطباء منا ، الا القليل منهم ، اذا وقفوا على منابر الخطابة ان يملقوا
من اعجابنا بأنفسنا ويبرقشوا بذكر من تقدم من أسلافنا وما كان لهم من المفاخر
والمآثر ، أو يلبسوا علينا بما عند بعضنا من جودة القرائح وغريب البدائة وسامي
المدارك ، كأنما يريدون أن يسدلوا بذلك حجابا على ما بنا من الضعف ويضربوا

ستارا على ما نحن فيه من التقايد ، يشاغلوننا بكل ذلك عن أن ننظر الى حقيقة أمرنا .

ولا نلومهم في ذلك فما قصدوا الا خيرا ولا أرادوا به الا اصلاحا وفائدة . وكأني بهم يريدون التنشيط ويعملون على تحريك كامن المروءة والغيرة . لان من احس بضعفه وقوة الآخرين تصاغرت اليه نفسه وأخذ الى المذلة والخول لا يبعد أن في هذا شيئا من الحقيقة . الا أن من جهل فاته التدبير ومن زعم امتلاء خزائنه صيما عضه ناب الجوع شتاء ، ومن استنام في مسبعة من الارضين لم يأمن وثبات الاسود ، فاذا نجا بنفسه فقد لا تسلم ركوبته . ومن قائل الرأي التطمين في مواقف الخوف ، والتخويف في موطن الامن والسلامة . وشر من ذلك أن تتغالى بقوتنا ونحن ضعفاء ، أو نقنط وفيما بقية من الرجاء

أطلت عليكم أيها السادة بطنطنة كلام ماله من محصل سوى التملويه والتهويل فاعذروني من هذه الحيشية فقط ولا ترموا بابصاركم عني ، وأسألكم لقاء اعتذارى هذا سؤال أوجه اليكم وهو (من هو العالم منا ؟) والسؤال نفسه هو موضع خطابي . فاسمعوني قليلا يسمعهكم الله ، ولو أن في كلامي هذا بعض المراجعة

من العالم منا

مما تتداوله الالسنه - ولا أظنه فات مسامع أحد منكم - القول بكثرة المدارس العلمية وازدياد عدد العلماء والمتعلمين حتى صار البعض يزعمون مضرة العلم لانه ترك الكثيرين عطلا لا يحسنون عملا ولا يأتون بحركة ، انما هم ينتقلون من مكان الى مكان يشكون من كساد سوق العلم وبخس بضاعته . فبعض يلومون ويدمون ، وبعض يتأففون ويشكون ، وآخرون يعتبرون على الايام وذيرهم يشكون من جائر القسمة بين الانام . وكلهم وإن اختلفوا في نوع الشكوى متفقون على ان العالم في بلادهم خاسر الصفقة لا يرى من مواطنيهم الا تجنبا وإعراضا ولا يرى ذروه إلا انتقااصا وخيبه . على حين انه على عكس ذلك في ذير بلادهم ، فسوقه رائجة وتجارته رابحة وذروه على غاية من الاعزاز والتجلة ، الى ذير ذلك مما يزعمون .

اما سمعتم مثل هذه الشكوى ايها السادة ؟ بل اما انحرقم احيانا الى القائلين
 بها وجار ينموهم فيما يقارب معناها واستشهدتم على ذلك بذكر كبار العلماء في
 الممالك الغربية وما هم عليه من التجلة واعزاز المنزلة بين مواطنيهم ؟ وذكركم
 ايضا فغاليتم ما يكون من اقبال الامراء والعظماء عليهم والاحتفاء بهم والاخذ
 برأيهم ، ثم عطفتهم بعدها الى انفسكم قائلين « أو مثل هذا يحصل في بلادنا ؟ »
 يزعمون أن العلماء عندكم مطروحون في زوايا الاهمال ليس من يحفل بشأنهم
 او يرد عليهم الصباح ردا نحسنا اذا ما صبحوا . لقد ظلم القائلون بهذا القول
 انفسهم وبلادهم . أما بلادهم فقد تقولوا عنها ما هي براء منه ونسبوا اليها
 مالا تستحقه من الشنعة ، فانها لو انصفوا اشد البلدان مغالة في تعظيم العلم
 وأهله فعامتنا يشيرون بالبنان الى من عنده كتاب بين ظهرائهم لا يخالفون له
 فيما بينهم رأيا ولا يقدمون عليه في مجالسهم أحداً ، فاذا مرض مريضهم لاذوا به
 أو اشكل عليهم مشكل قصدوا اليه أو بدا لهم خاطر فأنحروا به . بل قد يطفرون
 إلى أكثر من ذلك فيزعمون فيه القوة على التصرف بعالم الجماد وتأثيره فيه
 رأسا من غير توسط . ويزيدون على ذلك ان الارواح تخف الى خدمته في قضاء
 ما يريد من المصالح والحاجات وان الافلاك تكشفه بما عندها من النوامض
 والمكنونات ، لا تخفى عنه ما تضره على غيره من البشر ولا تكتنه خصوصية
 ما عندها من الاثر ، الى غير ذلك مما لا يخفى عليكم امره ، ولا يفوتكم من اعتبارهم
 العلم والعلماء ، والا لما نسبوا اليهم ما تحسبونهم ضلالا وجهلا وتشددون عليهم
 النكير من أجله تعنيفا ولو ما . فما بلادكم دون غيرها من البلدان في تعظيم شأن
 العلم واجلال الآخذين به والاقبال عليهم ، وحسبكم ماترون من اخواننا ابناء
 الملة الاسلامية وقيامهم على تعظيم مشايخهم واولي العلم منهم على مشهد منكم فلا
 يمر الطالب بشيخه ولو أنه من أعظم ابناء الامراء والوجهاء فيجازه من دون
 ان يقف لديه موقف الاجلال والتعظيم ، بل لا يرى حطة من التبرك بتقبيل يديه
 واستئذانه في حاجة له يتولى هو بنفسه قضاؤها له . حاشا لله ان نتهم بلادنا
 وأهل بلادنا بمسأمة براء منه . فان احتفاءهم بالعالم وأهل العالم لعلى غاية ، حتى

انهم ليودون أن ينتسبوا الى العلم انتسابا غير مساترين في حب التعرف باهله والتودد اليهم ولا بالمتشاكلين عن الاجتماع بهم والتزلف بالبشر والهشاشة اليهم حرصا على نادرة يروونها عندهم وحكمة يقتبسونها منهم وفكاهة يهشون اليها وغريبة يتهاكون على الاحتفاظ بها . وهنا أسألكم ايها السادة ايصح بعد هذا ان نشنع على أهالي بلانا بالغفلة عن العلم وعدم الاكتراث بالعلماء واستثقالهم عن الاقبال عليهم والاحتفاء بهم ؟ عاشا لله إنا اذن لظالمون . هذا ولو انا انحرفنا لتصديق بعض هذه الشنعة لقمنا علينا من حفلتنا هذه شاهد في وجوهنا يشهد ضدنا انا لخطئون : لم اجتمعتم ايها السادة ، ولم أرى المكان يضيق عن ان يسع المجتمعين منكم ؟ اما هو تعظيما لشأن معلم وحباً به واقبالا على مثلى من المتطفلين على موائد المنتمين اليه بمجرد انماء وهم ليسوا في الحقيقة على شيء سوى انهم مقلدون لبعض بعضه ؟ يقال بضاعة فاسدة وأنتم تشكون من كثرة عدد الطلبة ؟ أم يقال إن سوقه غير رائجة ، وهذه مدارس بيروت الكبرى خاصة بالطلبة فضلا عن مدراسها الوسطى والابتدائية ؟ أم يقال بعدم الاقبال عليه والاحتفاء به وأكثر من نصف آباء الطلبة يضيقون على أنفسهم وعيالهم توفيراً لما يصرفونه على بنيتهم من دفع رواتب طالب منهم للمدرسة ومن مصاريف أخرى لا يرون التقدير على بنيتهم فيها ؟ أو ليس من الخطر ان تنهم آباء يبيعون من أملاكهم لينفقوا على تعليم بنيتهم ، أنهم لا يعبرون بالعالم ولا يكثر تون به ؟ أو ما نظلم أبا نرويه بعدم الرغبة في العلم ، وهو ينفق على ابنه نحواً من اربعين ليرا سنوياً ؟ قيمة تقارب ثلث مدخوله أو تزيد حبا في العلم ، وما هو بالمعلم الا لغة أجنبية يبربر بها على مسجع من والديه ، وياحبذا لو اتقنها كما يجب ؟

اعدلوا ايها المتهاكون عن لوقية في بلادكم وأهالي بلادكم وأتاهمهم بما هم براء منه ، ولا تعجوا في احكامكم ايهم قبل الروية فما هذا انصاف منكم . ومنشأ الخطأ في أنكم لم تدبروا الواقع فنظرتكم نظرة المتسرع وزعتم ان فيما بينكم من العلماء من يشفون في مقدار علمهم على علماء الغربيين وطالبتهم مواطنيتكم بناء على زعمكم هذا أن يقبلوا على قوم « ما عرفوا العلم إلا تقليدا » بمثل ما يكون من

الاقبال على أعظم العلماء وجلة الفلاسفة . أين علماءنا ؟ مموم لنا فترى بعدها
 ماذا كان مواطنكم بخسوم حقهم من الاعزاز والتجلة ؟ أين نيوتن الرياضي
 فيما بيننا ؟ ابرزوه الى العالم وأنا أريك من فوق ضريحه نصبا يعلو على النصب
 المنسوب لنيوتن الانكابر . هاتوا نعشا يقل من مثل الرجل وأنا آتيكم بأعظم
 رجالنا وانبلهم مجدا وشرفا يحملون في يوم شديد الحر او في يوم يتدفق سيله
 وتعصف زعارعه فلا يبالون ويشغلهم فقد الرجل عما هم فيه من ذلك جميعه . أين
 لا بلاس او دي لامبير ؟ هاتوا من مثل هذين وأنا آتيكم بمثل الخليفة المأمون .
 فيضن بها ان تقع عليهما عين الغارة او يقرع باسماعهما لفظ العامة والدهماء . أين
 فيكتور هوجو أو اسنكدر دوماس ؟ هاتوا لي من هذين الكاتبين وأنا آتيكم بسيف الدولة
 من جديد الى الوجود وآتيكم بالأمة عن اخرها تعظم قدرها ونجل من شأنها باضعاف ما
 فعل الفرنسيون ، بل أقيم لكل منهما تمثالا بل ابني لكل منهما مزارا على رابية
 مطلة تطلها الأشجار الغضة وتحمدها الناس زائرين اعترافا بفضلهما جيلا بعد جيل ؟
 أين وبستر او بترى من علماء اللغة ؟ هاتوا لي مثل هذين ، وأنا الكفيل
 باقبال الناس عليهما مثلهما كان من اقبال الامريكان والفرنساويين على هذين الفاضلين .
 هاتوا من مثل اديسون الأمريكاني . هاتوا من مثل فراداي او سادي كارنو
 أو جول ، وغيرهم من علماء الكيمياء وأنا الكفيل الا يقوم منا خطيب على منبر
 الا ويفتح مقدمة خطابه بذكر أسمائهم ويختتمها بالثناء عليهم بما لا يثنى بمثله الا
 على الأمراء وأعظم الملوك . أروني أمثال هؤلاء أريك كيف يكون اقبالنا عليهم
 واجلالنا لمقدار علمهم وفضلهم .

فهبلا أيها الشاكرون من كساد سوق العلم في بلادكم وبخس اهله حقوقهم
 من الاجلال والاحترام ، فمن منا العالم احتقر فضله ، وبخس حقه فلم يوفي من الاقبال
 والكرامة اضعاف ما يستحقه ؟ هذا شاعرنا المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي ، فقد
 طار له في بلادنا شهرة لم تطر لفكتور هوغو . فانه لم يبق من قصر في مدينة ولا
 كوخ في قرية الا وعرف اسمه عند ساكنيها يذكرونه بما يستحق من التجلة
 والكرامة علي حين تعامون الفارق ما بينه وبين الشاعر الفرنسي ! فذاك مولده

بياريس وأبوه أحد الجنرالية المعروفين في الدولة ، وهذا والده من قرية شيا وليس لأبيه شهرة الجنرال . هذا كان غنيا وفي الغنى لوحده شهرة وهذا وان لم يكن فقيرا كان متوسط الحال . فلو قابلتم بين احوال الرجائين وعدائهم لحكمتم ان الشهرة لشاعرنا المرحوم في بلاده تزيد عن شهرة الشاعر الفرنسي في بلاده . ولا ينبغي الغفلة عن نسبة البلادين احدهما للأخرى

هذا وطنينا الشهير المرحوم بطرس البستاني . فمن منا إن من خاصتنا أو عامتنا ، من سكان المدن أو سكان القرى والمداسر لا يعرف اسم هذا الفقيه الفاضل ولا له عنده من المكانة ورفيع المنزلة مالا يعطى مثلها لمثل من علماء المغرب ؟ وهذا كاتبنا المرحوم أديب بك اسحق فانه بلغ من الشهرة عندنا ما عرفته مصر والشام والعراق جميعا وكان عزيز المكانة رفيع الجاه حينما توجه ومروقا بالابصار حينما حل ، لم يبلغ شيئا من ذلك ككتب من طبقة بين كتاب الغربيين على الاطلاق فيما أرجح

لا يسعني الوقت ان اذكر لكم من علماء الامة الاسلامية وكتابها من ذهبت الايام باشخاصهم كما ذهبت بمن تقدم . واما ذكرهم فلا يزال فيما بيننا على ممر الايام والسنين .

اسمحوا لي ان اذكركم بالسيد جمال الدين الافغانى وما كان له من التجارة ورفيع المنزلة . فانه قدم الاستانة فلقى من اعظم القوم فيها ما يلقاه من كان في منزله من العلم في الدواصم الغربية ثم رحل منها الى مصر فلقاه أهلها احسن ملقى واقبلوا عليه وايماء اقبال ، ما اظن تخبيا لعالم غربي من طبقة ان يرى مثله من ابناء جلدته ، فكثرت لامذته وكاهم من اعيان البلاد وعظمائها فكان اذا خرج من منزله رأيتهم يحيطون به احاطة الحالة بالقمر من عن يمينه ومن عن شماله ومن ورأه وكاهم مجل من منزله معظم من قدر علمه ، يحتسب له ضيقه اذا هو اقبل عليه بخطابه .

واخاف اذا عدت بعض المشتغلين في العلم في بيروت وما لم في نفوسنا من التجارة والكرامة ان اذكر البعض فارمى بغاية ينالني من نسبتها اقله حلق المتروكين وموجدة المذكورين لاني قدمت في الذكر اسما أو نسيت اسما

وإما كتبتنا في العلم والسياسة المعروفين فلهم فيها بيننا طائر الصيت ومزيد
التعجبة والكرامة . فإذا حضروا في مجلس كان لهم فيه صدره وإذا دار حديثهم
بالأبصار دون سوائهم أو احتيج إلى رأي يستشار بموجبه، توجه الفكر اختصاصاً
إليهم وفي الغالب يكون قولهم فصل الخطاب تنقطع عنده الحجة ولا يطالب فيما رآه
بسند . ويكفي الإشارة إلى ما يرد عليهم من رسائل كبارنا ونخبه أعياننا فتعلمون
من ذلك مقدار منزلتهم في مجتمعنا العمراني . وإلا فما يتوارد إليهم من المسائل التي
يطلب رأيهم فيها من جميع الجهات . فإن في هذا كما أرى اصدق شاهد على عظمتهم
في النفوس وبالع مكانتهم من الكرامة والاحترام .

وأما من جهة فئدتهم المادية وحصولهم على الغنى والرفاه ، فساودا إليه بعد أن أعاد
عليكم سؤالاً وهو « من منا العالم فمعلمه » ، وأنا شدم الله إلا تنحرفوا مع الأعجاب
والدعوى وتشددوا على التكبر زعماً تصلباً في أني محترم مقدار علم اخواني أو اني
غير مقدره حقه الواجب .

من منا ثقة في علم حتى يرجع إليه في دقائقه ومتشبات مسائله ؟ بل هل بلغنا
من علم اللغة وفلسفتها وهو العلم المشتغل فيه عندنا أكثر مما سواه ، مبلغ علماء المغرب ؟
لا تأخذكم الانفة فتخوف قلوبكم إلى غير الواقع الحق . من منا في مصاف مكس
مولر أو في مصاف هوتني أو في مصاف روسيو رينان وغيرهم من علماء الانكليز
والفرنساويين والجرمان ؟ بل من منا اذا عمد إلى مقالة يكتبها في هذا البحث لا
يتأد فيها ويستند إلى كتب امثال هؤلاء اذا اراد ان يخرج شيئاً عن حيز المبتذل
السخيف ؟ اناشدكم الحق أن تلبسوا على في الجواب بما يظهر بهرجه عند التمهيص
والانتقاد غير المشوب بالطلاء والتمويه

مالنا ولعلم اللغة . هاته الرياضيات ودعوانا فيها طويلاً عريضة باكثر مما يبلغه
عرض أعجابنا أحياناً بعلومنا وانفسنا . فمن منا بلغ فيها غير الحد المتعارف من
كتب الجبر واقليدس وبعض الشيء في المثلثات وقطع المخروط على ما في الكتب التي
اعتنى بها العلامة الدكتور كرنيلوس فاندريك ووضعها بين أيدي الطلبة

هذا علم التمام والتفاضل وهو من ضمنها ، وكثيراً ما يرد ذكره على السنتنا لكن
منها زاعجاً بل . فمن منا اتقن مسائله فخرج فيها عن رتبة التقليد ؟ بل من يتجاسر

منا على الدعوى بامتلاك ناصية هذا العلم على ما هو في ابسط كتب القوم ، او ان يضع نفسه ، وان ملأت الدعوى جميع تجاويف دماغه ، ووضع كلارك مكبول وطمس وامثالهما ، بل وفي منزلة تنحط بدرجات عن منزلتهما

مالنا ولعلم الفلك وما بلغ فيه ذروة من الغربيين ، فربما نعتذر عن انفسنا ان ليس لنا من الوسائل والآلات ما يمكننا مما تمكن القوم من الوصول اليه ومعرفة مظاهره .

لا احب ان اسألكم مفصلا عن كل علم فما أظن الوقت يسعني لذلك ولهذا اكتفى بالسؤال اجمالا — من منا الثقة في الجيولوجيا أو الفيلولوجيا أو الانثروبولوجيا أو الزولوجيا ، فيرجع الى رأيه في مسائلها وينتهي اليه سندها — من منا بلغ في هاته العلوم جزءا مما بلغه أهلها من الغربيين كالسر تشارس ليل والعلامة برون سيكار وأورون ، وولاس . وتيلر ودوكترفاج ، وهكسلي ، ودارون ، وغيرهم كثيرون من علماء الامم الغربية

من منا بلغ من العلوم العقلية والادبية مبالغ لوك وكذنت والمطران تيلر وهيغل والبرزدنت مكاش وامثال هؤلاء من الفلاسفة والحكماء ؟ من منا بلغ مبالغ ستوارت مل وهربرت سبنسر وهوسيو لا كونت وغيرهم في علم العمرانية والاقتصاد ؟ بل من يعرف من مبادئ هذين العلمين الاشياء لا يذكرك نظره عرضا في كتب القوم فاولع بالتعريض فيما عرفه يغالى به وربما لا يكون ادرك حقيقة تذكر ولا حصل له مندف في ذهنه صورة معينة ، فكان على غير هدى فيما طالع ولا تحقيق فيما يعرض بذكره في احاديثه ومجالسه .

لا تزعموا اني اوجه مر كلامي هذا الى ما عندنا من الاستعداد العقلي لادراك هذه العلوم التي عدتها فازعم ان ليس لقومي من الاستعداد لتحصيل هذه العلوم كما لاولئك . انما أنكر أنا بلغنا فيما حصلناه مبالغ القوم وما من اجله لم مالم من عزيز المنزلة ورفيع المكانة في الدولة وبين مواطنيهم من الشعب والامة على العموم . إن العلوم التي ذكرت من تقصيرنا فيها وعدم بلوغ أحدنا فيها مبلغا مذكورا انما هي علوم نظرية تهذيبية . على ان هنالك علوما اخرى عملية آلية كالجغرافيا

وتواضعها من الرسم والمساحات والهندسة العملية من بناء القصور والجسور المعقدة
 وهندسة الخطوط الحديدية أولاً ومد قضبانها وإدارتها مع ما تقدر به نفعاتها ثانياً
 ثم معرفة ما تقدر به إراداتها إذا تم أمرها ثالثاً ، وحفر الترع والخارجين والانفاق
 تخترق قلوب الجبال وتسهل سبل التجارة والمعاملات ، فهاته جميعها علوم نحن
 خلو منها وإلا فمن منا المستطيع تخطيط طريق إلى الغرات فالهند وتقدير نفعاتها
 والمدة التي تلزم لإتمامها ثم حالة عمران البلاد فيما بعد ذلك وكيفية الإيرادات ، وينظم
 في كل ذلك لأئحة تعقل أو تقريراً يتصور منه صورة جلية واضحة . من منا يحلم
 في أن يقدم على مثل أعمال الموسيويدي لسبس ؟ بل من منا يعرف جغرافية بلاده
 وأن يرسم مصورها على حقتها غير متلد أو ناقل عمارته النجوم فتكون خزانته الخازنة
 المعول عليها وتقاريراته التقارير التي يرجع عند التحقيق إليها من هيئة الأرضين
 وأنواع تربتها وما يصلح للزراعة منها وإي الزراعات أكثر غلة في كل من البقاع كل بقعة
 على حدتها وما هنالك من الجداول والأنهار والمواقع المهمة للمراکز الحربية والتجارية
 وما تقدر به غلة كل بقعة إلى ما يماثل هذا ما يقتضي معرفته أولاً قبل استغلال تلك
 الغلات واستعمار ما هنالك من الضياع الغامرات .

الخير في القول أن ليس منا الحاضرين والغائبين من يثق بنفسه ويدعى مثل هذه
 العلوم العملية والبراعة فهي بما يؤهلها لأن يقوم مقام الثقة الخبير وتحقيق القول بالفعل
 إذا عهد إليه زمام التدبير والعمل ، أن من حكومتنا السنية أو من شركات وطنيه .
 وإذا كانت هذه حالتنا فما لنا ندعى أنا مظلومون مبخوسو الحقوق في علمنا غير موفى لنا
 من مواطنينا ما نستحقه من التجارة والمنفعة أزاء اشتغالنا بالعلم . ألا إن كل هذا لدعوى
 العريضة انماعى من سفاسف العقل وهذوه حملنا عليها الإعجاب من جهة ، وجبل منزلتنا
 العلمية من جهة أخرى فإني يصح أن لم يعرف أكثر من آداب لغته ولغة اجنبية مضافاً إلى
 ذلك بعض مبادئ العلوم الرياضية والطبيعية أحياناً ، وأحياناً من غير تلك الاضافة ، أن
 يطلب لنفسه تجارة كبار العلماء الغربيين ومنزلتهم وتسلم زمام الأمر والنهي في قومه وأكثر
 من ذلك أن ترمى إليه الأغنياء بأموالها يتصرف بها من دونهم فيما يعود عليه وعاليتهم على
 ما يزعم بالنفع الدائم ، فإني له كل هذا الاستحقاق ومتى طلب مثل طلبه هذا أقراته

من الدراسين في البلدان الاجنبية ، بل يطلبه اوسعهم علما وأوسعهم قدما في النفي
والثروة والفضل والسياسة . فما هذه الا وساوس يوسوس بها الغرور والاعتداد
بالنفس وجهل بالعلم ، وبما يجلب من اجله العلم والعداء . ان العلم له ثمرات يجلب من اجلها
وتنصرف اليه المواطنين وتطمح النفوس حبا بتحصيلها . وثمراته انما هي تهذيب
العقل والقلب من جهة ثم اصلاح حال المجتمع العمراني بما يكون من سعادة افراده
ورغد عيشهم من جهة اخرى . فاذا لم تتحقق تلك الثمرات لم يكن ثم فارق بين
العلم والجهل ولم يكن العلم مطمحاً لانظار الخاصة والعامة ولا اهلا ان ينظر اليه .
بين السكامة والاعظام بل لم تكن له مزية اصلا على الجهل فيحتفي به من اجلها .
والعالم ان لم يتوسم فيه خير ، ويؤمل منه مع العلم صلاح تتحقق فيه الآمال من
الحصول على ثمرات العلم ومنافعه ، لم تكن له مزية فضل على الجاهل ولا هو
بالمتحقق ان تشخص نحوه الابصار او تلقى اليه مقاليد الامر والتدبير في شيء
اصلا . ان العالم لا يخرج في علمه عن احدي حالتين اما ان يقتصر على التهذيب
وإدارة العقول بواسطة التعاليم والكتابة ، وحكمه حينئذ حكم من يبيع اصناف
المأكولات واطياب الحلوى ، فهاته يستلذها الذوق ويقبل عليها كل على حسب
قابلية التذاده وقوة هاضمته « وكثرة دراهمه » وتلك يلتذ بها العقل أيضا وهي غذاؤه
الذي تتوقف عليه حياته المعنوية وتتفاوت الاشخاص في الاقبال عليها والرغبة فيها
تبعاً لتفاوت قواهم العاقلة وقابلية اذ هانهم لفهمها والالتذاذ بها كما لا يخفى . واما
ان يتجاوز ذلك الى ما وراءه من تسهيل سبل الاكتساب . وتكثير اسبابه وحوكمه
حينئذ حكم المروج في المصالح والصناعات واقبال الناس عليها يكون كقبالهم على
اولى المكاسب والصناعات والتجارات ونها لكهم على اصحاب البنوك والمقاربات
أو على أهل الدولة لما يطمع في الاقبال على كل من الكسب وتحصيل ما يؤم
به رغد العيش وهناؤه . وعلى قدر اقبال الناس عليه في الحالة الاول حبا بما عنده ،
اعنى على قدر كثرة تلامذته أو قراء تآليفه تكون مكانته المادية من تحصيل النفي
واليسار والتمتع بالحياة الدنيا من حسن مأوى وكسوة وطيب معاش وعلى قدر
انتفاعهم بثمرات علمه في الحالة الثانية يكون اكتسابه وتحصيله الدرهم والدينار .

اما اذا لم يكن لامله من ثمرة فلا هو استاذ ماهر تقبل عليه التلامذة ولا هو كاتب مجيد يقبل الناس على قراءة مصنفاته ، فلا يؤمل عوضاً عن ثمرات اشتغاله بالعلم ولا يطمع في شيء من الكسب المادي فما حكه حينئذ الا حكم الجاهل وخير له ان يتعاطى اسباب الكسب من أبوابها شأن غيره من الناس ولا لوم له حينئذ الا على نفسه . فلا يحق له تلوم اهل بلاده وريهيم بالغبلة عن العلم وعدم اعتدادهم به وبأهله . كما لا يحق لبائع الحلوى ان يشكو منا عدم التذاذ القوم بما عنده ويريهيم بمقدار حسن الذائقة اذا هو لم يستطع اجتذاب الزبائن والتنفق اليهم بما عنده والحق أن افراد المجتمع العمراني ما جنت بهد ولا اخذها من الشيطان ولا عرض عليها الخرف ولا نقصان الدم في البدن والدماغ حتى تقبل على رجل يزعم انه عالم أو يشتغل بالعلم ليس له من المال والجاه شيء يذكر ولا رأيت من ثمرات علمه شيئاً ، فلا هو بالكثير المصنفات والآليف ولا هو بالمتبحر على العلوم العمالية ولا من البارعين نظرياً فيها ، ولا عرفت منه أيضاً سعة النظر وحسن التدبير والسياسة فترى اليه مقاليد امورها وتحكمه في مصالحها وشؤونها وتنقده الاغنياء اموالها وهي ثمرة اتابها وكدها يتوسع فيها في أحوال دنياه ورغد عيشه ليس الا لكونه يزعم انه مشتغل بالعلم . ان ذلك لا يكون ولا كان في مجتمع من المجتمعات العمرانية اصلاً .

انى لا عجب من زاعم العلم يطلب ملء ايدى الناس من غير ما يرون منه عوضاً ولا يحصلون منه على فائدة ويطلب تجارة وجاها وهو لم يأخذ بالاسباب المؤدية إلى ذلك من الاحسان والتفضل على الناس ، ولا سعى في اسباب اسعادهم ورغد عيشهم اما رأساً او بتكثير اسباب معاشهم وتسهيل سبل مكاسبهم ولا عرف ايضاً ان تقدم من غائلة او صرف عنهم مكروها أو انتشلهم من ورطة ولا كفاهم مؤونة تعليم بنينهم وتهذيب عقولهم ولا ولا ...

كلماتى مرة وكنت اود ان لا اسمعكم إياها إلا أنها فارت فؤرتها في نفسى بآلم استطع ردها ، لان الطلبة في بلادنا والمتبجحين بالادب آخذينهم الاعجاب مأخذهم فيزعمون انهم اذا صرفوا في احدى المدارس بضع سنين اصبحوا أهلاً لأن يعهد

اليهم باعظم المهام والمناصب وبتسلية مقاليد الامر والنهي في السياسة والدين والصناعة
 والتجارة والزراعة ولو كانت حلتهم الاجتماعية بهما كانت ، بل حتى المستوردون
 المتجملون منهم يصبح احدهم بحسب أنه صار أدلا لان تسلمه الاغنياء اموالها
 وتعرفه الوجهاء واصحاب الامر والرياسة من عدادها والا فقد بنحووا العلم حقه .
 زعم جر اليه الغفلة عن طبيعة الوجود وانصل اليه الجبل بالواقع وعدم تخصيص
 مسموعات الاخبار عما هو كثر في غير بلاد والوقوف على كنه حقائق تلك المسموعات
 فهو يسمع ان العالم عزيز المنزلة في الملك الغربية و يسمع ان العلماء اصحاب جواهر
 وتبلي في قلوبهم يستشارون في عظام الامور و يطالب اليهم ادارة المهام من سياسية
 وصناعية وتجارية الخ فيظن ان العالم العزيز ما كان نفاير عليه والعلماء المنظر اليهم
 المسموعة كتبهم المتبعة اراؤهم انماهم من مثل طبقتهم فيمكن منه هذا الوهم ويدخله
 الاعجاب فهو يستزيد من طلب البيان وكشف الواقع عن حقيقة الامال . والحق
 غير ما سمعه والواقع ابعد مما في ذهنه صورة منه . فان العالم العزيز الجانب انما هو
 العالم الصحيح المفيد ، المجتني ثمراته ، الظاهرة آثاره ، في تحسين شؤون المملكة
 وزيادة قوتها ومنعتها والعائد على افراد المجتمع بما فيه الرفاه وصالح المال وتكثير
 وسائل الایجاد والاكتساب . والعلماء الجبل من قدرهم انما هم البالغون من الدرجة
 التي لا يحكم بمثلها في بلادنا في الحال والحاج اليهم في حل ما يعرض من مشاكل
 العمرانية فضلا عن انهم من الاغنياء في النادر عما في ايدي الناس لا يطلبون كفاف
 العيش من اكياس الاغنياء والنقراء ولا يخطر لهم في بال ان يطالبوا الاغنياء
 بوضع رؤوس اموالهم بين ايديهم لمجرد الزعم بانهم علماء يحسنون بها التصرف
 والتدبير اكثر مما يحسنه اصحابها او لانهم ينفقونها في وجهتها وهي غير الوجهة
 التي ينفقونها هم « اعني اصحابها » بها لانهم ينفقونها في ترف العيش والملاذات البدنية
 وليعلم ان الطالب ولا سيما اذا كان قديرا لا يؤهل لمجرد طلب العلم وتحصيل شئ منه
 للتجارة والرياسة ، ولا يقع لديه مقام شافع عند الاغنياء والممولين بما يوجب عليهم
 تحكيمه في اموالهم حتى ولا في مشورته فيما يوجب نفاؤها وكثرتها ، الا اذا حصل من
 العلم ما يحتاج اليه يوميا في شؤون المجتمع العمراني وظهرت ثمراته ، من جر المنفعة

إلى أفرادهم ظهوراً أبين من الشمس في قائم الظهيرة . ولا يطمع أيضاً في انهبال
الاموال عليه ازاء علمه الا اذا كان ما عنده من العلم مرغوباً فيه عند الأكثرين
وارغبة فيه مستمرة لا تنقطع ، فتكون يومئذ لا تكون اياماً . كأن يكون عدد
المتخرجين عليه او عدد قراء مؤلفاته . هذا اذا كان علمه تهذيباً قاءة ثمراته في
تهذيب القوى العاقلة وتقوية مداركها وفي دماء الاخلاق وازدياد الخرف والكياسة
وبلاغة اللسان المرغوب فيها في المجتمع العمراني . وعليه أن يتحول في كلما يؤثر به
الى بلوغ المراد من ذلك ، كما يتحول غيره من أهل البيئات النافقة في جر الناس
اليه او الاقبال على بضاعته

وأما اذا كان علمه عملياً فعلياً أن يبين لمعامله بياناً واضحاً ما يتحصل لهم من
الربح ويتوفر لديهم من المنافع اذا هم علموه . على أنه اذا قعد به الاعتجاب والكبر
او شيء آخر مما كان فليسع في ما ذكرناه ، فهو يزال الى ما شاء الله خالاً قير الحال
يشكو من محاباة الايام ويذم من كساد سوق العلم ولا من يعيره اذناً صاغية الا
تهكما عليه واستخفافاً به . ولسوء الطالع ان كثيرين من المدعين بالعلم يؤمنون ان
في مجرد اشتغالهم بالعلم ما يوجب على الاغنياء مدهم باموالهم جزافاً وعلى أهل الحل
والعقد استشارتهم في امرهم وتحكيمهم في فض المناشاكل والذهاب في تغيير اخلاق
الناس وعوائدهم على ما يشاؤون ويتوهمون وهم مع ذلك قليلو عدد التلامذة قليلو
المؤلفات اذ ليس لهم منبها شيء ، وفي الوقت نفسه اكياسهم افرغ من صواع النساك
وعقول صغار الصبيان . واذا لم يروا انفسهم في هذه الحالة كبر عليهم الامر واخذتهم
الانفة من جهل الناس وكساد بضاعة العلم عندهم ، فيرون الاغنياء بما يخطر في
ضعيف خواطرهم وأهل الوجاهة والرياسة بما يبدو لعلمهم الممدوق ونظرهم السكايل
وما ذنبهم الا تقصيرهم وما شكواهم الا على انفسهم . لا يكبر عليكم اذا خالفت بعض
المألوف من الافكار واخذت بناصر أهل الغنى واصحاب المال والعقد عندنا على
كثيرين من الادباء المشتغين بالعلم . فمتى عرض أحدهم لأئحة على اكابر اغنيائنا
ابان لهم فيها بياناً شافياً ما يستطيع ان يجرب به من التدبير في أملاكهم ، مثلاً وما قد
يتخذ من الوسائل مما يوجب ازدياد غلتها كتملاك عشرين في المائة ، ولم يمدوه

بالمال اتمتضى لذلك وركلوا اليه امر استغلالها والقيام على تدبيرها أيضاً ؟
 وحتى ارتأوا رأيها في مهم من مهمات مجتمعتهم وأتوا بالحجج الدافعة على صدق
 ما ارتأوه وأعرض عن رأيهم واستخف حينئذ بعلمهم وحتى كانت تأليفهم خارجة
 عن حد المبتذل ولم يقبل عليها القراء اقبالهم على اطائب الحلوى ولذيذ المشروبات !
 ارنا ثمرات علمك ايها العالم فنريك اقبالنا عليك واحترامنا من مقدار علمك
 وفضلك . ارنا حسن رأيك فينا وفضل عائدته علينا فنريك انقيادنا لامرك
 واعظامنا من شأنك وكرمنا في مكافأتك . ارنا بلاغة حديثك فنريك مقدار
 إعجابنا بك . ارنا محيط حكمتك فنريك مزيد اجلالنا لك وامتداد اعناقنا اليك
 لكن ارنا من خمولك فنريك كيف يكون خذلانك . ارنا من ادعتك فنريك
 من استخافنا بك . هات ما عندك فنرد عليك من نفس بضاعتك ، فان لم يكن منك
 الا شقشة لسان في بعض المجالس فلا تؤمل إلا بعض مواعيد وهذا كغير عليك ، وإن
 تطاللت الى أكثر من ذلك فلا تعجب اذا خابت بك ظنونك فرجعت
 بخفي حنين .

نعم على فرض انا بلغنا في علمنا مبلغ علماء الغربيين من غير تقليد لهم ولا
 اخذ عنهم ، فلا يؤمل علمنا ان يحصل من ثمرات علمه المادية مثلاً بحصله عالم غربي
 من طبقته . نعم لا ينقصنا عنه بين قوما ما يكون من التجلة والكرامة التي هي له
 بين قومه بل ربما يكون لنا من ذلك نصيب اوفى من نصيبه لما فطرنا عليه كما ارى
 من حب العلم واجلال العلماء ، الا ان نصيبنا من الماديات بين قومنا لا بد وان
 يكون اقل من نصيبه بين قومه . وسبب ذلك الفرق ، ما بين البلادين في الغنى والجاه
 وكثرة الساكن . فعلمهم اذا اشتهر يدرس عليه الألف من الطلبة مثلاً وأما عالمنا
 فلا يدرس عليه الا نحو ربع هذا العدد او اقل من ذلك . والسبب ظاهر لما في
 بلاد من كثرة الساكن وقلته في بلادنا ولما هي عليه مدائنه من الازدحام وارتفاع
 قيم الأعمال ، شيء ليست عليه مدائن بلادنا . ومن المعلوم ان من يفيد الألف
 يستفيد منهم مادياً « اراء افادته لهم » اربع مرات ما يستفيد من يدرس عليه ربع

هذا العدد . وكذلك مؤلفهم فانه يجد الألف من القراء لكثيرتهم تبعاً لكثرة
الساكن ، يقبلون على اقتناء مؤلفاته بينما ان مؤلفنا لا يجد الا المئات . فبالطبع اذن
لا يكون حال عالمنا من الرفاه وسعة العيش كحال عالمهم فلا يغفل عن ذلك والا البس
عليه الامر واخطانا في الحكم فزعمنا مثل ما يزعمه اكثرنا الآن من عدم اجلال
مواطنينا شأن العلم والعلماء أو انهم ينقصون في ذلك عن الامم الغربية .

ومثل ذلك يقال في شأن الاطباء والمهندسين والمخترعين ومن شاكلهم
وانت منهم من علماء العلوم العملية فالطبيب الذائع الصيت في لندن يكون نصيبه
من الفن والجاه أوفر من نصيب الطبيب الذائع الصيت على نسبه في بيروت ،
لما بين لندن وبيروت من التفاوت في عدد الساكن ومثل ذلك المهندس والمصور
والموسيقي والنحات والمخترع وكل ذلك لما تقتضيه طبائع الوجود .

لا احب الافاضة بعد فيما قد ينال من هذا القبيل الا اني اعود فاعتذر عنكم
ايها الطامة والمشتغلون في العلم على عدم بلوغكم من العلم ما يبلغه غيركم من علماء
المغرب . ولو لم يكن ثم لكم عذر الا ان أولئك من شعوب غالبة وانتم من شعب
مغلوب وان أوطانهم غنية كثيرة الساكن ووطنكم انتم فقير قليل الساكن ، لكفى .
فكيف وقد حكمت احوال العمران والسياسة ان يكون الكثيرون منكم من
القراء المتجملين ومن متوسطي الحال في الغنى والوجاهة ولا بد اذن من ان ينصرف
همكم لتحصيل ضروريات معاشكم على طريقة شريفة تليق بكم أولاً . ومن
يفكر معظم أوقات فراغه في تحصيل اسباب معاشه من الطعام والملبس والسكن
والادخار أيضاً للمستقبل خوفاً من فاجئة تفجأه من عالم الغيب لا يمكنه من
توجيه افكاره جميعها واستغراقها في موضوع بحثه اذ بينا هو مستغرق في ابجائه
آنا يتمثل امامه شبح الجوع كاسراً عن انيابه يهدد بزيارة اذا ظل في غفلة
هذه ، فيهب مذعوراً ويقطع به عما كان يحاوله فتلفت منه سلسلة افكاره ما زال
يعانى طويلاً قبل ان يمكن منها ويملك قيادها . فما كين انتم ومن لا يتدرك
فهو غافل أو قاس عديم التحقيق بعيد عن المواجهة والشعور مع الآخرين .
وهناك أمور أخرى تشغل افكاركم وتبعدكم عما تحبون من متابعة ابجائكم

ومنها في الراجح عندى ازدراء الاغنياء بكم ممن هم اكثر مالا منكم وتنفتحهم
عليكم فاذا حضرتم اتفاقا في مجلس من مجالس هؤلاء وظاهركم ظاهر الفقر - وقبحه
الله ما اسجدوا شذوطاته - تناولتكم السنتهم به يسوؤكم اذا لم توافق نظراتكم وجهة نظرهم
وأكلحوا لكم وجودهم بدلا من المشاشة والبشر «ولا تلوهم وهم فياته طبائع الوجود
العمرائى» حتى اذا ما انصرفتم لا تنصرف عن اذهانكم صورة ما لا تقيده فتفر
فترات نفوسكم وتطلى على مساوئها من تصورات اذهانكم فيغيب وراءها كثير
من مدركاتكم فلا تعود تبين الا بعد ان ينمى طمو هذا التيار - وربما حاتم
عليهم حقدا في صدوركم والحمد (ميكروب الفكرة وآفة صحة النظر)

ومنها أيضا انكم بينا انتم تشغلون في علم هو أحب اليكم من غيره واليط بلبكم
وقد وطنتم انفسكم على متابعة مسائله حتى تصلوا فيه الى آخر ما يوصلكم فيه
البحث وقوة استعدادكم يعود فيخطر لكم أنه ربما قل الاقبال على هذا العلم «وان
لم يكن هذا هو الواقع» فتهجرونه الى غيره واذا طعمتم بامساك بطيختين بيد واحدة
فلا يبعد ان تتفالت كلتاها من أيدينا

على أن اعتذارى هذا وان قبلناه من غير اعتراض عليه لا يقاننا بصحته
لا يبرر ولا يمحوا خطأنا الفكرى في تقدير علمنا وعلم الغربيين ونزلة العلماء عندهم
ونزلتهم عندنا، كما أشرت الى ذلك فى كل مامر والرجوع عن الغلط خير من اتمادى
فيه. ولى الامل أن لا تمر سنون كثيرة قبل أن تنجلي لدينا الحقائق الخفية فنطبق
أفكارنا وأعمالنا عليها

واقدم الآن مزيد الشكر لرئيسنا الموقر ولاعضاء الجمعية الافاضل ولكل
واحد من الحاضرين سادات وسيدات والبلام

جبر ضوط

بمطبعة